

## الفصل الثاني والثلاثون

### العرب في أفريقيا

١٦٩ — ٥٦٧ هـ ؛ ٧٨٥ — ١١٧١ م

دولة الأدارسة — الأغالبة — فزوصقية — احتلالها — سقوط  
دولة الأغالبة — الفاطميون — احتلال مصر — تأسيس القاهرة —  
احتلال الشام والحجاز واليمن — تدهور الدولة الفاطمية — انقراضها —  
مخلف الإسماعيلية الأكبر

كانت الممتلكات الأفريقية إلى عهد المهدي ثالث الخلفاء العباسيين تعترف بسيادة الخلافة العباسية . وفي عهد الهادي فر « إدريس <sup>(١)</sup> » خفيد الحسن الأول إلى المغرب ، وهناك بمساعدة قبائل البربر الذين استجابوا له أسس مملكة قوية الدعائم ، ازدهرت حيناً من الزمن في أفريقية الشمالية ، كما ابنتى مدينة فاس وجعلها عاصمة ملكه ، فأصبحت مركزاً مهماً للعلم والثقافة . ويقال إن الخليفة العباسي أرسل من <sup>(٢)</sup> دس له السم ؛ خلفه ابنه الطفل إدريس تحت وصاية أمه والوزير غالب ، وقد برهن إدريس على أنه بطل شجاع قام بمسدة حروب في الجنوب ، ويقول ابن خلدون : « إن الدولة العباسية كانت قد امتدت في المغرب الأقصى من سوس إلى شلف » . ولما توفى في سنة ٢١٣ هـ اعتلى ابنه محمد كرسي الخلافة ، ويلوح أن السياسة التي اتبعها في إسناد مناصب الولاية إلى أفراد أسرته نجحت نجاحاً باهراً ، إذ ظل جميع إخوانه — إذا استثنينا واحداً منهم — موالين له إلى النهاية .

ولما توفى محمد سنة ٢٢١ هـ خلفه ابنه علي وكان عمره تسع سنوات ، فبايحه

(١) إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب . (المغرب)

(٢) إدريس الصفاخ اليمامي مولى المهدي . (المغرب)

الجميع وأخلص له كبار الدولة ، وقد علق أحد المؤرخين المعاصرين على ذلك ، بقوله : « إن في عهده حسنت حال الرعية » . وتوفي وله من العمر ٢٢ سنة دون أن يعقب ولدا ، فاعتلى أخوه « يحيى بن محمود » العرش . وفي خلال عهده الطويل انتشر سلطانه في سائر أنحاء البلاد ، وتقدمت المملكة تقدما باهرا في الثروة والرخاء ، وجعلت مدينة فاس التي تدفق عليها الناس من جميع الأنحاء .

وفي سنة ٢٦٤ هـ توفي يحيى وخلفه ابنه المسمى بهذا الاسم ، وأدى ظلمه إلى نشوب اضطرابات انتهت بإقصائه عن الحكم ، ففر إلى الأندلس حيث لاقى حتفه . ولما عزل يحيى الثاني استولى على الملك من بعده ابن عمه « علي بن عمر » الذي لم يبق في الحكم مدة طويلة ، إذ اضطرت ثورة الخوارج على الفرار إلى الأندلس ، وعندئذ بايع أهل فاس يحيى حفيد إدريس الثاني بالخلافة ، وكان عالماً فقيهاً ملماً بالحديث فنجح مدى حين في نشر سلطانه على الدولة الإدريسية القديمة ، غير أن حكمه انتهى بسرعة سنة ٣٠٩ هـ ، حيث طرده حاكم مكناسة الفاطمي في السنة عينها ، فاعتزل الاشتغال بالمسائل العامة وعاش في المهديّة حتى توفي سنة ٣٣١ هـ . وبعزله انقرضت الخلافة الإدريسية فأدعى عمال الولايات البعيدة بالإمارة . وفي سنة ٣١٩ هـ أرسل عبد الرحمن الثالث حملة عسكرية على رأسها الناصر إلى أفريقية ، فاستولى على المغرب الأقصى ونفى معظم أمراء الأدارسة إلى قرطبة ، وهكذا سقطت مراكش الغربية في أيدي خلفاء الأندلس بينما اعترف القسم الشرقي منها بسُلطان الفاطميين .

وفاته يحيى

لا مشاحة أن مؤسس هذه الدولة هو « إبراهيم بن الأغلب » المشهور بحسن الإدارة وواسع الذكاء ؛ وقد ابنتى في ضواحي القيروان مدينة جديدة سماها بالعباسية وجعلها قاعدة للملكة ، وبلغت مدة حكمه اثني عشرة سنة ؛ ولما توفي ولى بعده ابنه عبد الله ، فاستقامت له الأمور ، وتمتع الناس في ظله بنعمة الطمأنينة

بنو الأغلب

والعدل<sup>(١)</sup>؛ وتوفى سنة ٢٠١ هـ خلفه أخوه زيادة الله، وكان طموح النفس حازماً شجاعاً محباً للعلم مكرماً للعلماء، ولكنه كان متكبراً مهملًا لأمر الرعية فخرجوا عليه، ولكنه بعد قتال عنيف مزق شملهم ووطد الأمن ثانية في ربوع البلاد.

الاستيلاء على صقلية

لقد ظل في قبضة العرب منذ عهد طويل قسم من جنوب صقلية، ولم يبدأوا في الواقع بإخضاع الجزيرة برمتها إلا في عهد الأغالبة، ففي سنة ٢١١ هـ أرسل (زيادة الله) جيشاً إلى صقلية على رأسه أسد<sup>(٢)</sup> بن الفرات قاضي القيروان. وقد اختلفت الروايات المسجلة والنصرانية في سبب هذا الغزو، ففي الرواية النصرانية: « أن شاباً بيزنطياً اسمه يوفيلوس غرر بإحدى الراهبات وأخرجها من الدير، فحك عليه الإمبراطور بقطع لسانه، وفي الحال التجأ إلى المسلمين في أفريقية وحرصهم على غزو الجزيرة ». ولكن ابن الأثير لم يذكر شيئاً عن الراهبة بل قال: « إن سبب إرسال الجيش هو أن ملك الروم بالقسطنطينية استعمل على جزيرة صقلية بطريقاً اسمه قسطنطين عام ٢١١ هـ، فلما وصل إليها عين رومياً اسمه فيمى قائداً على الأسطول، وقد كان حازماً شجاعاً فغزا أفريقية وأعمل فيها يد النهب والتخريب؛ ولكن ملك الروم لم يلبث أن كتب إلى قسطنطين يأمره بالقبض على فيمى وتعذيبه، فلما انتهى هذا الخبر إلى مسامعه شق عصا الطاعة، وفي الحال سار إليه قسطنطين واقتتل الفريقان حتى حلت الهزيمة بقسطنطين الذي لم يلبث أن فر إلى مدينة قطنانية، وعندئذ زحف عليه فيمى بجيش كبير طفق يقاتله حتى قبض عليه وفتك به، ثم نادى بنفسه ملكاً على تلك الجزيرة، كما استعمل على أحد أقسامها رجلاً اسمه بلاطه لم يلبث هو الآخر أن شق عصا الطاعة مع ابن عم له اسمه ميخائيل حاكم مدينة بلرم، فجمع الاثنان جيشاً لجباً وقاتلا فيمى وألحقا به هزيمة منكرة، واستولى بلاطه على مدينة

(١) ابن الأثير.

(٢) وهو مصنف الأسدية في الفقه على مذهب مالك. (العرب)

سرقوسة ؛ ولكن لم تمض مدة وجيزة حتى أرسل فيمى إلى الأمير زيادة الله يستنجده ويعدده بملك جزيرة صقلية ، فسير معه جيشاً في ربيع الأول عام ٢١٢ هـ فوصلا إلى مدينة « مازر » حيث تقابلا مع جمع حاشد من الروم ، ودارت بين الفريقين معركة هائلة أسفرت عن هزيمة الروم واستيلاء المسلمين على أموالهم ودوابهم ، وعندئذ هرب بلاطة إلى قلورية حيث قتل بها واستولى المسلمون على عدة حصون في الجزيرة وحاصروا سرقوسة ، غير أن وباءً شديداً انتشر في معسكر المسلمين فهلك به كثير منهم ، ومن جملتهم « أسد بن الفرات » الذى ولى مكانه محمد بن أبى الجوارى . وعند ما رأى المسلمون استفحال الوباء وانتصار الروم ، قصدوا توأ إلى مدينة « ميناو » واستولوا عليها عنوة ، فقويت بذلك شوكتهم ، ثم ساروا إلى مدينة « قصر يانة » ومعهم « فيمى » الذى فتك به سكانها . ولكن « محمداً بن أبى الجوارى » لم يلبث أن توفى وولى مكانه زهير بن غوث . وتقول لنا الرواية : إن الروم حاولوا يومئذ أن يطردوا المسلمين من الجزيرة فحاصروهم فى ميناو ، وما إن وصلت قوات جديدة إلى المحصورين من الأندلس وأفريقية حتى انسحب الروم إلى سرقوسة ، وزحف المسلمون فى رجب سنة ٢١٦ على بلرم واستولوا عليها عنوة . وبعد فى الواقع الاستيلاء على تلك المدينة بدء احتلال الجزيرة ، ومع أن قسماً كبيراً منها أذعن بالتسليم للقائد العربى ، إلا أن الإدارة المنظمة لم تؤسس فيها إلا بعد أن وصل إليها حاكمها الجديد « أبو الأغلب إبراهيم بن عبد الله » من أسرة زيادة الله الذى فى عهده تم الاستيلاء على المناطق المجاورة لجبل أتنه ( جبل النار ) .

وفى عام ٢٢٣ هـ توفى زيادة الله وولى مكانه أخوه أبو عنان الأغلب ، وكان عهده عهد رخاء ، « فأحسن إلى الجند وأزال مظالم كثيرة ، وزاد العمال فى أرزاقهم » ، كما سير فرقة إلى صقلية واستولى على عدة معاقل على ساحل كلابريان فى جنوبي إيطاليا .

وفاة الأغلب  
سنة ٢٢٦ هـ

وفي سنة ٢٢٦ هـ توفي الأغلب بمرء أن حكم البلاد سنتين وسبعة أشهر ، وولى بعده ابنه أبو العباس محمد ، وكان إدارياً حازماً مولعاً بالمعارة . وفي سنة ٢٢٨ هـ سار الفضل بن جعفر الهمداني حاكم صقلية ، فنزل « مسيني » وبث السرايا وقاتل سنتين ، ولكنه لم ينجح في فتحها لاعتقاد أهلها على المساعدات التي كانت تردم من نابولي ، ولكنهم سلموا أخيراً بشروط سخية . وفي سنة ٢٣٢ هـ استولى الفضل على مدينة لنتيني ، وتغلغل بجيشه في الأرض الكبرى مكتسحاً كلابريا وكامبانيا ، وبلغ عدد المدن التي فتحت عنوة أو قدمت طاعتها ١٥٠ مدينة ؛ وفي تلك الأثناء دخل أسطول العرب نهر التير وعاث تخريباً في فاندى وضواحي روما ، وحاصر « غيطة » ، غير أن انقسام العرب وانشقاقهم حال دون استيلائهم عليها . وفي سنة ٢٣٣ هـ نزلوا مدينة « تارنتو » ، وفي سنة ٢٣٤ هـ أخضعوا مدينة « راغوس » ، كما زحفوا في سنة ٢٣٥ هـ على روما ثانية فشارت زوامة شديدة تغلبت على مهارة البحارة الأبطال وأتذت مدينة البابا من أيدي العرب الذين تحطم أسطولهم على شواطئ الجزر والصخور الناتئة . وفي رجب سنة ٢٣٦ هـ توفي أمير صقلية في « بلم » فولى الناس عليهم العباس بن الفضل وكتبوا إلى أمير أفريقية بذلك ، فلما قدم العهد إلى الوالي الجديد واصل غزوه بنشاط وحزم عظيمين ، فأخضع في سنتي ٢٣٩ و ٢٤٠ هـ « قطانية » و « قلعة أبي ثور » وعدة مدن أخرى .

وفي سنة ٢٤٧ هـ توفي « العباس » أمير صقلية فنمادى السكان بابنه « عبدالله » كما عليهم وكتبوا بذلك إلى أمير أفريقية فأقره على الولاية ، ولكنه لم يلبث أن ولى مكانه خفاجه بن سفيان . وفي سنة ٢٥٠ هـ فتح العرب مدينة « نوطس » كما أخضعوا بعد بضع سنين « سرقوسة » التي قاومت ردحاً من الزمن ، كذلك استولوا على أبا ، وساتاس ، وقصر الجديد ؛ وفي سنة ٢٥٤ هـ حاصر « محمد بن خفاجه » مدينة غيطة وأخضع ضواحي مدينة روما . وفي سنة ٢٥٥ هـ توفي

خفاجه<sup>(١)</sup> وخلفه ابنه محمد فسير أسطولا إلى مالطة بقيادة أحمد بن عمر ، ولكنه لم يلبث أن قتل في قصره في ثلاثة من رجب سنة ٢٥٧ . ولأجل أن يستكمل البحث عن احتلال المسلمين لجزيرة صقلية يجب أن نلم بشيء عن الحوادث التي وقعت في إمارة أفريقية منذ سنة ٢٤٨ هـ حيث توفي محمد وولى بعده ابنه أبو إبراهيم أحمد الذي حكم البلاد حكما مرضياً ، وقد كان عادلا عاقلا حسن السيرة حازماً ؛ ويقال إنه شيد عشرة آلاف حصن بالحجارة والآجر لصد غزوات الأعداء . وفي سنة ٢٤٩ هـ توفي « أبو إبراهيم أحمد » وتولى بعده « أبو محمد زيادة الله » وجرى على سنن سلفه ولم تطل أيامه فتوى ، وكانت مدة ولايته أكثر من سنة ونصف سنة<sup>(٢)</sup> ؛ وولى بعده أخوه عبد الله ويقول فيه ابن الأثير : « إنه كان أديباً عاقلاً عادلاً حسن السيرة » ، وفي عهده تغلب الروم على مواضع من صقلية ، فشيدها « بمحمد » كثيراً من الحصون والمعقل ، ويقال إنه استولى على أرض تعرف بالأرض الكبيرة ، وتوفي أبو عبد الله محمد سنة ٢٦١ هـ وتولى بعده أخوه إبراهيم .

وقد عرف في مستهل حكمه بالعدل والإحسان ، غير أنه أصيب أخيراً بمرض سفك الدماء فذبح أبناءه الأحد عشر مما أثار سخط الخليفة « المعتضد » عليه فعزله في الحال وولى مكانه ابنه « أبا العباس عبد الله » الذي كان يحارب وقتئذ في صقلية ، فعبر إبراهيم على أثر عزله إلى تلك الجزيرة واشترك في محاربة الروم حتى وافته منيته بعد أمد قصير .

وقد كان « أبو العباس عبد الله » طيب القلب عادلاً شجاعاً ذا مقدرة وكفاية في إدارة شؤون الدولة ؛ ولكن ابنه « مضر » أغرى به من اغتاله

(١) يقول ابن الأثير ص ٤١ ج ٧ : « اغتاله رجل من عسكره إذ طعنه طعنة فقتله وهرب إلى سرقوسة » . (المغرب)

(٢) يقول ابن الأثير ص ٢١٣ ج ٦ : « كانت ولايته سنة واحدة وستة أيام » . (المغرب)

وبموته انتهى حكم تلك الأسرة على أفريقية . وتقول لنا الرواية العربية إن مضرأ بعد أن حرض عبيده على الفتك بأبيه استسلم لضروب اللهو والاستمتاع فتردت البلاد على عهده في مهاوى الدمار والحراب ، كما نشبت ثورة في أفريقية الشمالية كان لها أكبر الأثر في تغيير مجرى الحوادث التي وقعت فيما بعد في تلك البلاد .

قيام الثورة  
الفاطمية

أتينا فيما تقدم على وصف الانشقاق الذي حصل بين الشيعة على أثر وفاة الإمام جعفر ، وقبول الأغلبية إمامة موسى الكاظم الذي كان قد أوصى به أبوه على أثر وفاة إسماعيل أكبر أبنائه ، في حين كان البعض الآخر يتمسك بإمامة « محمد بن إسماعيل » الملقب بالمكتوم ، وقد أدخل الإسماعيليون على مذهبهم كثيراً من الآراء السرية التي أخذوها عن الفلسفة المانية ، وكانوا يرون أن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً ، وكانوا يختلفون عن المسلمين في اعتقاداتهم إذ يعتبرون العبدة بالإيمان وليس بالأعمال ، فسميت هذه الفئة المتطرفة من الإسماعيلية بالباطنية<sup>(١)</sup> ، وأثارت تعاليمهم السرية شكوك الخلفاء العباسيين فبشوا حولهم الأرصاء والعيون ونكلوا بهم شر تنكيل .

جفر الصادق

ولما توفي محمد المكتوم خلفه في الإمامة الإسماعيلية ابنه « جفر الصادق » ، الذي بعد أن توفي خلفه ابنه محمد الملقب « بالحبيب » ، وكان رجلاً عالي الهمة كبير الآمال والأطباع ذا مقدرة وكفاية وفيه شبه بالسفاح والمنصور ، وكان يقيم في البلدة المعروفة « بالسلمية » من أرض « حمص » ، حيث كان دعائه في كافة الأمصار يكتبونه سرا ويثرون بالآراء الإسماعيلية ، فانتشرت مبادئ تلك الجماعة بسرعة عجيبة في اليمن واليامة والبحرين والسند والهند ومصر وأفريقية الشمالية ، وكان من أخلص دعائه وأكثرهم حماساً أبو عبد الله الحسيني الذي كان محتسب البصرة من قبل وعرف فيما بعد « بالشيخي » .

(١) قد تفرع من الباطنية قسماً : القرامطة والحشاشون ، ويسى العرب القسم الثاني بالباطنية .

وفي سنة ٢٨٨ هـ توجه « أبو عبد الله » إلى أفریقیة فقومى نفوذہ بین البربر السریعی التآثر بخطبه العجیبة ، وشدة شكیمته وقوة إرادته فوق تقواه وتشفه ، فأنحازت إليه قبيلة كتامة القویة . وفي ذلك العهد كان یحكم أفریقیة إبراهيم بن محمد فحاول قمع الحركة الإسماعیلیة ، ولكنه فشل إزاء نشاط أبي عبد الله ، كما أن تولیة « زیادة الله » الضعیف مهدت السبیل لنشر الدعوة . وفيما كان الحاكم الأعلی « غارقا في ملذاته كان نفوذ « أبي عبد الله » یقومی ویشتد في البلاد ، كما كان دعائه یبشرون بقرب ظهور المهدي » ، وماهی إلا رهة حتى سیر « زیادة الله » جيشین علی أتباع « الشیعی » فالتقی الفریقان ، وبعد قتال شدید انهزم أصحاب « زیادة الله » الذی فر إلى طرابلس ومنها إلى آسیا<sup>(١)</sup> ، وكانت للسياسة الرشیدة التي أتبعها « عبد الله » أكبر الأثر في استماله العامة وتهیئتهم لاستقبال الإمام صاحب الدعوة .

وفي نهاية القرن الثالث الهجری توفی « محمد الحبيب » ، وعند ما بايع ابنه « عبيد الله » خاطبه قائلا : « أنت المهدي المنتظر ، وستهاجر بعدي هجرة بعيدة وتلقى محنا شديدة » ، ولكن عبيد الله ظل برغم ذلك يعيش حياة هادئة في بلدة « السلمية » حتى ضمن الشیعی مؤازرة قبيلة كتامة ، وبمث بالرسل إلى المهدي لیخبروه بما فتح الله علیه وبأنهم ينتظرونه ، فخرج عبيد الله في الحال مع ابنه أبي القاسم وأبي العباس (أخي الشیعی) و بعض خاصته ومواليه متنكرين بزى التجار ، وبالرغم مما أحاط عبد الله به سفره من التکتم الشديد ، فقد تسرب الخبر إلى الخليفة العباسی الذی لم یلبث أن كتب إلى عماله بأوصافه وأمرهم بالقبض علیه وعلى كل من يشتبه فيهم ، وفي طرابلس ترك « أبو العباس » المهدي وتوجه إلى القیروان حيث اكتشف أمره فقبض علیه وزج في السجن ، غیر أن عبيد الله وابنه تمكنا من الفرار ووصلا سالین سنة ٢٩٦ هـ إلى « سجلماسة »

عبيد الله المهدي  
أول الخلفاء  
الفاطميين

(١) يقول ابن عساکر إنه توفی في الرقة سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٨ - ٩٠٩ م) .

وهي مدينة على سفح جبل الأطلس ، وكانت عندئذ عاصمة بني مدرار ، وهناك تحلى عنهما الحظ ، إذ أن « اليسع » أمير سجلماسة بعد أن كان قد أحسن استقبالهما اعتقلهما على أثر وصول كتاب من « زيادة الله » ، فجز « الشيعي » جيشاً كبيراً وزحف به على القيروان فأخذ أخاه « أبا العباس » ، ثم أسرع إلى مقابلة اليسع<sup>(١)</sup> ، وبعد أن قتله أسرع إلى المكان الذي فيه عبد الله هو وولده ، ثم أركبهما ومشى مع رؤساء قبيلة كتامة ، وطفق يبكي من شدة الفرح ويقول للناس : « هذا مولاكم ! » حتى وصل إلى القسطنطينية ، وبعد أن مكثوا أربعين يوماً « بسجلماسة » ساروا إلى « رقادة »<sup>(٢)</sup> حيث بايعه أهل القيروان بالخلافة ، وانتشرت سيادته في أفريقية ، واعترف به جميع أهلها باستثناء نفر قليل منهم ، واستعمل العمال على الولايات ومن جعلتها صقلية ؛ فلما باشر الأمور بنفسه واستقامت له البلاد داخل أبا العباس الحسد بعد أن كان قد منى نفسه بأن يكون هو صاحب الأمر والنهي ، فسخط لفقده السلطة وأخذ يتآمر مع بعض رؤساء قبيلة « كتامة » على خلع الخليفة الفاطمي ، ولم يزل بأخيه « عبد الله » الخادم الأمين حتى استماله إليه فحاول « المهدي » أن يصالحهما ، غير أنهما رفضا التفاهم معه رفضاً باتاً ، ولما تيقن من عزيمتهما على اغتياله أمر بهما فقتلا عند باب القصر ؛ ومع ذلك لم يحل قتلهما دون أن يواصل الغزو ، فقد تمكن من نشر سلطته على القسم الأعظم من صحراء ليبيا حتى المغرب الأقصى . وبالرغم من سعيه في تدعيم الأمن وكبح شكيمة البربر الذين كانوا يؤلفون القسم الأعظم من الجيش ، فقد ارتكبوا أروع أعمال السفك في أثناء قمع تلك الفتنة ، مما أدى إلى إثارة فتنة أخرى دعت المهدي بعد أن استقامت له الأمور إلى أن يفكر في إنشاء عاصمة محصنة تحصيناً قويا خشية

(١) يقول ابن الأثير ص ١٩ ج ٨ : إن اليسع هرب وأهله وبعد أن خرج المهدي ووصل إلى القسطنطينية أمر بطلب اليسع فطلب فأدرك فضرب بالسياط ثم قتل . (المغرب)  
(٢) يقول ابن خلدون إن رقادة على مسافة ثلاثة أميال من القيروان .

الخروج عليه ، فغادر تونس وأخذ يستطلع المواقع على الساحل ، وأخيراً أنتخب موقعاً على لسان البحر ، وأبنتى المدينة التى سماها المهديّة ، إلا أنه لم يتم بناؤها إلا بعد خمس سنوات ؛ ويقال إنه شيد حول تلك المدينة سوراً قوياً وجعل له أبواباً حديدية ، وبنى بداخلها القصور ذات السرايب الفسيحة التى اختزن فيها كميات عظيمة من المؤونة ، وبعد أن أكمل تشييدها خاطب نفسه قائلاً : « إني لأشعر الآن باطمئنان عظيم على مصير الدولة الفاطمية الناشئة » ، وكان حكمه شديداً حازماً ؛ وحتى السيوطى يقول فيه : إنه نشر العدل فى الناس فماولوا إليه . وفى سنة ٣٠٩ أخضع الدولة الإدريسية ، غير أنه فشل فى غزو مصر ، ولكنه مع ذلك وجه اهتمامه شطر أسبانيا فعاجله الموت قبل تحقيق أمنيته .

وفى سنة ٣٢٢ هـ توفى « عبد الله » وكانت ولايته أربعاً وعشرين سنة ، وخلفه ابنه « أبو القاسم محمد نزار » ولقب « بالقائم بأمر الله » ، وكان جندياً بأسلاً تولى بنفسه قيادة الجيوش ، وكان أول خليفة فاطمى شيد أسطولا قوياً استطاع به أن يستولى على زعامة البحر الأبيض المتوسط ، و بعد أن وطد دعائم ملكه فى المغرب الأقصى — ما عدا منطقة فاس — حول بصره شطر أوروبا ليوقف سير الغارات التى كانت تشنها على ثغور مملكته البحارة الإيطاليون من سكان لفریان و بيزا وبعض الموانئ الأخرى ؛ فاحتل جنوبى إيطاليا حتى مدينة جاثيقتا ، واستولى بسفنه الحربية على جنوه التى بقيت فى قبضة العرب ردحا من الزمن ، كما أخضع جزءاً من لومباردى ( الأناكابوردة ) ؛ ولولا نشوب الفتن الداخلية التى استنفدت جميع مصادره وجهوده الحربية لأخضع إيطاليا برمتها . ولسوء الطالع اشتد تدمر الناس من أعمال البربر الوحشية ، وتطور غضبهم إلى فتنة هائلة فى الوقت الذى كانت أوروبا قد فتحت فيه أبوابها أمامهم ، وكان على رأس الفتنة أحد الخوارج واسمه « أبو يزيد مخلد بن كيراد<sup>(١)</sup> » ، وكان مدرساً

(١) يقول ابن الأثير (ص ١٦٤ ج ٨) : إن اسم والده كنداد . (المغرب)

وخطيبا مفوها استطاع بخطبه الرنانة وتعاليمه الشيقة أن يجمع حوله عددا كبيرا من البربر من جبال أوراس ، كذلك كاتب الخليفة الأندلسي ورغبه في الزحف على أفريقية لسحق الدعى الفاطمى . وفى سنة ٣٣٣ هـ زحف أبو يزيد — الذى أطلق عليه أتباعه اسم « شيخ المسلمين » — من الجبال فى قوة كبيرة من القبائل المتوحشة ، وأوقع بالجيش الفاطمى هزائم منكورة ، ثم استولى عنوة على مدون القيروان مرتكباً فى ذلك أروع ضروب السفك ؛ وما انقضت مدة وجيزة حتى تحققت تنبؤات المهدي ، إذ وقع القسم الأعظم من البلاد فى قبضة الفقيه الثائر وأصبح نفوذ القائم وسلطانه مقتصرًا على المهديّة ، وقليل من المدن المحصنة على الساحل . وقد حاول أبو يزيد أن يستولى على العاصمة ، ولكنه كان يبوء بعد كل هجوم بالفشل المريع ، وأخيرا حاصرها حصارا شديدا حتى منع عنها المدد ؛ كذلك يقال إنه زحف على « سوس » لكنى يستولى عليها عنوة .

وفاة القائم

وبينا كان « أبو يزيد » يضيق الحصار على « سوس » توفى « القائم » ، وخلفه ابنه « أبو الطاهر إسماعيل » الملقب « بالمنصور بأمر الله » ، وكان شابا قوى العزم شديد البطش ، فأنزله بالقبائل المتعصبة هزائم منكورة ، ولما كان هؤلاء لا يظهرون أية رحمة نحو أعدائهم فقد عاملهم بالمثل . أما أبو يزيد فلم يلبث أن فر إلى جبل « سالات » وهو جبل وعمر صخرى قائم فى الصحراء ، ويستغرق اختراقه أحد عشر يوما ، فتمتقه « المنصور » وحاصره فى قلعة كتامة ، ودارت رحى القتال بينهما ردحا من الزمن . ويقال إن أبا يزيد حاول فى خلاها أن يفلت من الحصار عدة مرات ، غير أنه وقع أسيرا فى قبضة عدوه الذى فتك به فى الحال ؛ وبالرغم من أن ابن أبى يزيد وبعض أتباعه ظلوا مدة يثيرون الفتن والقتال ، إلا أن أفريقية برمتها أذعنّت بالتسليم للحاكم الفاطمى كما اعترفت صقلية وقلورية بسلطة العرب .

وفى سنة ٧٢٩ م ولّى المنصور الحسن بن على ابن أبى الحسين الكلبي على

صقلية ، وظل هذا المنصب وراثيا في أسرته ردحا من الزمن . ويقال إنه سير عدة سفن على الفرج الذين كانوا قد توغلوا في قلورية ، وأنزل بهم خسائر فادحة على سواحل إيطاليا ؛ غير أن المغرب الأقصى برغم تلك الانتصارات أفلت من يد المنصور ، وذلك أن الخليفة الأموي في الأندلس انتهاز فرصة نشوب فتنة أبي يزيد وقهوض حكم الأدارسة في تلك البلاد .

وفاة المنصور

وفي سنة ٣٤١ هـ توفي المنصور خلفه ابنه «أبو تميم معذ» الملقب «بالمعز لدين الله» ويصفه المؤرخون حتى أعداء أسرته بأنه حاكم شهم عاقل عظيم الهمة ، وكان عالما ملما بالفلسفة والعلوم ، ومحباً للعلم مكرماً للعلماء ، ويمكن أن نسميه بمأمون المغرب وفي عهده بلغت أفريقية الشمالية شأوا عظيماً في المدنية ، فقد حسن حال الرعية ، ورد المظالم ، وقع الفتن بيد من حديد ، ونظم شؤون الإدارة وسن القوانين ، وقسم الولايات إلى مناطق وعهد بإدارتها إلى الأكفاء وجهزم بالجنود والشرطة لحفظ النظام ، وأعاد تنظيم الجيش والأسطول ، وشجع التجارة والصناعة ؛ وكان فوق ذلك شهماً لبقاً إلى حد كبير ، فاكتسب صداقة الزعماء الذين كانوا من ألد أعداء أبيه وجده ، وكان يستقبلهم استقبالا حافلا ، ويعاملهم بالعرف واللفظ حتى أصبحوا من أعوانه المخلصين ؛ وفي تلك الأثناء استرد قائده جوهر «بلاد المغرب الأقصى» من الخليفة الناصر الذي كان منهمكا وقتئذ في حروبه مع الثوار المسيحيين في شمال أسبانيا ؛ كذلك سحق «زيري بن مناد» رئيس صنهاجة الثائرين في منطقتي أوراس وبوغيا ، وبذلك «توطدت دعائم سلطان المعز في أفريقية والمغرب واتسعت رقعة دولته» . وفي سنة ٣٤٤ هـ استوت السفن الأندلسية على سفينة من سفن المعز كانت مقلعة إلى المغرب ، فسخط الخليفة الفاطمي ، وفي الحال أمر عامل صقلية «الحسن بن علي» أن يقلع إلى الأندلس ويدمر ساحل المرية ، ولكن الناصر لم يقف مكتوف اليدين إزاء هذا التصرف المدائي ، فأمر جيشه أن يزحف على سوسة ومرسية ويعمل فيهما

يد التخريب والنهب ، وهكذا أصبح الملكان المسلمان عدوين لدودين بدلا من أن يوحدا صفوفهما ويخضعا أوربا برمتها . أما العرب الذين أخرجوا من قرطبة فكانوا قد استولوا على جزيرة كريت في عهد المأمون واستوطنوا بها ونشروا فيها معالم المدنية حتى زهت فيها العلوم والصناعات . وفي سنة ٣٥٠ هـ نزل الروم على الجزيرة لاستردادها ، وكان عدد السفن التي نقلتهم سبعمائة سفينة ، فاقتتل الفريقان ، واستبسل المسلمون ولكن دون جدوى ، ففرق الأعداء جمعهم وتغالوا في السلب والاعتصاب ، وارتكبوا أروع ضروب السفك ؛ ويقال إنهم كانوا يقفون على الرجال سائلا من القطران ثم يحرقونهم وهم أحياء ، كما كانوا يذبحون الأطفال والنساء على حد سواء من غير ما شفقة ولا رحمة ؛ غير أن العرب استعاضوا عن ضياع أفريقية بالقضاء على سلطان الروم في صقلية ، فزحف « أحمد ابن الحسن » حاكم الجزيرة على بقية الحصون التي كانت بأيدي الأعداء ، وأوقع بالجيش الذي أرسل لإنقاذ حاميتهم شرايقا حتى اضطروهم إلى القرار بسفنهم ، غير أنهم مع ذلك ما كادوا يرفعون الشرع ويتأهبون للرحيل حتى باقتهم العرب وأعملوا السيف في رقابهم ومزقوهم شرمزق ، فأغرقوا البعض ، وقتلوا البعض الآخر ، وبذلك أذعنّت الجزيرة نهائيا بالتسليم في سنة ٣٥١ هـ ، وتمتعت بما لم تتمتع به في عهد الأسراء الكلبيين من السعادة والاستقرار ؛ فشيدت الجوامع والمدارس والكليات ، وشجعت العلوم والفنون ، كما أخذت جامعة الطب في بلرم تضارع مثيلاتها في قرطبة و بغداد .

وفي سنة ٣٥٦ هـ عصفت بمصر ريح الاضطرابات فكتب بعض أشرافها إلى الخليفة المرز يدعو إلى فتح مصر لتوطيد الأمن وإقامة العدل ، فبعث قائده المشهور جوهر (الصقلي) في جيش كبير فدخل القائد الفاطمي القسطنطينية دون مقاومة . وفي ١٥ شعبان سنة ٣٥٨ هـ قرئت الخطبة باسم المرز على منابر المسجد الجامع . وفي سنة ٣٥٩ هـ أمر جوهر بأن يؤذن « بحمى على خير العمل »



أحد شوارع القاهرة

وتوطدت دعائم الحكم الفاطمي كما أمر بتشديد مدينة القاهرة التي أصبحت فيما بعد عاصمة دولة المعز وأخلافه ، وأخضع الحجاز والشام وقرأ الخطبة باسم المعز في الحرمين الشريفين ، وسحق القرامطة الذين كانوا أداة تجريب وفساد في معركة واحدة بالقرب من الفسطاط . وكان المعز إلى ذلك الحين مقبياً في أفريقية ولكنه تلبية لطلب قائده جوهر عزم على السفر إلى مصر ، وقبل أن يقدم على ذلك قام بالطواف في ملكه الشاسع ، وعين « بلوكين بن زيرا » والياً على أفريقية ولقبه باسم « سيف الدولة » ، ثم أقر « أحمد » على ولاية صقلية ، وبعد أن اتخذ كل التدابير لإدارة شؤون أفريقية الشمالية توجه إلى الشرق في صفر سنة ٣٦٢ ودخل

القاهرة في شهر رمضان ، وفي ١٥ منه جلس على العرش الذهبي وتقبل بيعة أشراف مصر والشام والحجاز . غير أن القرامطة كان قد اشتد ساعدهم في ذلك الحين برغم الهزيمة التي أوقعها بهم « جوهر » وقد كانت دمشق مهداً لتلك الفتن والاضطرابات ، ويقال إنهم ثاروا على نائب الخليفة الفاطمي وانتزعوا منه الشام ثم قتلوه وزحفوا على مصر ، فلقبهم جيش المعز في موقع يعرف بعين شمس (هليوبوليس الجديدة) وأوقع بهم شرايقاع ، ومنذ ذلك الحين لم تقم لهم أية قائمة . وبينما كانت الجيوش الفاطمية منهكة في الحروب مع القرامطة نادى أحد مماليك « بنى بويه » معز الدولة واسمه « أفتكين » بنفسه سلطاناً على دمشق وما جاورها .

وفاة المعز وتولية  
العزيز بالله

وفي يوم الجمعة ١٥ ربيع الثاني سنة ٣٦٥ هـ توفي المعز خلفه ولده « أبو منصور نزار » الملقب « بالعزيز بالله » ، ويصفه المؤرخون بأنه كان كريماً شجاعاً حكيماً شهماً ميالاً للتسامح حتى مع أعدائه ، فأقر « بلوكين بن زيرا » والموظفين الآخرين الذين عينهم والده في مناصبهم ، وألحق « بأفتكين » الذي حاول نشر سلطانه في فلسطين وسواحل فينيقية هزيمة شديدة وأمره ، ولكنه عفا عنه وعامله معاملة حسنة بحيث أصبح تابعاً مخلصاً للخلافة الفاطمية حتى وافته منيته .  
وفي عهد « العزيز » استولى الفاطميون على الشام وقسم من الجزيرة وأخذت تقرأ الخطبة باسمه ، ايس في الحجاز فحسب بل في اليمن والموصل وحلب وحماء وبعض المدن الأخرى ، فامتدت حدود الدولة الفاطمية من الفرات شرقاً إلى المحيط الأتلاطيق غرباً ، واشتملت كذلك على القسم الأعظم من جزيرة العرب . وكان الجيش الفاطمي منذ نشأته حتى عهد « المعز » يتألف من المغاربة الذين قامت على كواهلهم تلك الدولة ، ويظهر أنه عظم نفوذهم ، ولما أراد العزيز أن يحول دون تسيطهم ، أنشأ فرقة من الأتراك والديلم .

وفاته العزيز

وفي سنة ٣٨٦ هـ توفى العزيز في مدينة بلبس<sup>(١)</sup> في طريقه إلى الشام ،  
وبموته انتهت عظمة الدولة الفاطمية . وكان قد أوصى قبل موته قاضي القضاة  
« محمد بن النعمان » « وأبي محمد حسن بن عمار » الملقب « بأمين الدولة » بأمر  
تربية ولده وتثقيفه . وبيع المنصور بالخلافة والإمامة ولقب « بالحاكم بأمر الله »  
ولكنه لم يلبث أن وقع تحت نفوذ شخص طموح الفؤاد ميال إلى المؤامرات  
اسمه « برجوان » فاشتدت المنافسة بينه وبين « ابن عمار » ، وأخذ كل من الفريقين  
يتحين الفرص للإيقاع بخصمه ، فاختلفت الأمور في مصر والشام ، ولم يمض سوى  
قليل حتى ظهرت على الحاكم<sup>(٢)</sup> عوارض الجنون ، إذ كثيراً ما أصدر الأحكام  
الغريبة المتناقضة ، وكان أقل إهمال يعرض المذنب إلى عقوبة القتل ؛ وبمضي  
الزمن استحال هذا الشذوذ إلى شغف حاد بسفك الدماء ، فقتل عدداً كبيراً  
من كبراء الدولة من غير ما سبب ، ولكنه في لحظات صفائه كان جواداً سمحاً  
محبباً للعلم ، فشيّد عدة جوامع وكليات ومراصد في مصر والشام ، وقد حكم البلاد  
٢٥ سنة ، وهو على هذا النحو من اضطراب العقل ، غير أن هذه النزعات قضت  
عليه ؛ والمعروف أنه شغف بالوحدة والطواف بالليل ، وكان يقصد غالباً إلى جبل  
المقطم ليرصد النجوم ويستطلعها أو يجوب الفضاء الواسع طلباً للوحدة والتنسك ،

(١) وهناك رواية أخرى هي أن العزيز توفى بالقاهرة قبل خروجه إلى الشام .  
(النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٢١) . (المغرب)

(٢) يصفه ابن خلدون ج ٤ ص ٦٠ : « إن حاله كان مضطرباً في الجور والعدل  
والإخافة والأمن والفك والبدعة » . ويصفه ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ بأنه « كان جواداً  
سمحاً ، خبيثاً ما كراً ، ردى الاعتقاد ، سفاكاً للدماء ، قتل عدداً كبيراً من كبراء دولته  
صبراً ، وكان عجيب السيرة يخترع كل وقت أموراً وأحكاماً يحمل الرعية عليها . أما ميلر  
Miller فيقول : « إن هذه التصرفات ليست كلها تم عن الحماقة ، وإذا كنا لا نستطيع أن  
نظل كل أعماله فليس ذلك مما يحملنا على أن نعتبر تصرفاته فورة أهواء مستبد . ولا سيما ونحن  
نراها في نواح أخرى سليمة معتمولة » . ويقول دوزي : « ولقد أراد الحاكم أن يكافئ  
الانحلال الشامل الذي سرى إلى مجتمع عصره بقوانين بوليسبة صارمة وأحياناً غريبة شاذة » .  
(المغرب)

وفي ذات ليلة في ٢٧ شوال سنة ٤١١ ذهب كماذته إلى الجبل ومعه ركابيان ، وبعد أن صرفهما عند سفح الجبل ، سار متوغلا في شعب القطم<sup>(١)</sup> ولكنه لم يعد قط ، فأثار اختفاؤه هلعاً وخرج الناس للبحث عنه ، ولكنهم لم يجدوا في أعلى الجبل غير حمار الحاكم معرقباً ، وعلى بعد مسافة قصيرة منه عثروا بثيابه وفيها أثر الطعان ، غير أنهم لم يعثروا على جثته فمئذ أيقن الناس باغتياله .

كان الحاكم المؤسس الحقيقي لمذهب جديد يدور حول شخصه ، فكان يدعى تجسم الإله في شخصه ، وقد اعتقد أتباعه ودعاته بأنه اختفى مؤقتاً ليظهر ثانية متى أراد ، ولا يزال دروز<sup>(٢)</sup> جبل لبنان يؤمنون بهذه العقيدة .

وبعد وفاة الحاكم ولى ابنه أبو هاشم<sup>(٣)</sup> على ولقب بالظاهر لإعزاز دين الله ، وكانت عمته « ست الملك » الوصية عليه في السنوات الأربع الأولى من حكمه ، وبعد وفاتها استولى على مقاليد الدولة « ميزاد » و « نافر » ، وفي عهدهما فقدت الدولة الفاطمية الجزء الأكبر من الشام ، واستقل أحد أمراء العرب واسمه « صالح بن مدراس » بحلب وما جاورها . وتوفي الظاهر وعمره ٣١ سنة ، وكانت

---

(١) أخذ كثير من المؤرخين بالرواية العامة القائلة بإتهام ست الملك التي كان قد هددها بالقتل لسلوكتها المريب ، غير أن القرزبي يأتي أن يأخذ بتلك الرواية ويقول : « إنه في سنة ٤١٥ هـ قبض على رجل من بني حسين ثار بالصعيد الأعلى فأقر أنه قتل الحاكم بأمر الله في جملة أربعة أنفس تفرقوا في البلاد غيرته لله وللإسلام » . (المغرب)

(٢) نسبة إلى محمد بن إسماعيل الدرزي . ويقول لنا ابن العميد « إن الدرزي أول من أذاع الدعوة بألوهية الحاكم » وقد شرح دعوته وأصول مذهبه في رسالة قدمها إلى الحاكم فقره إليه ، واشتد نفوذه وسمى الدرزي نفسه « بسند الهادي » و « حياة المستجيبين » . وتقول دائرة المعارف الإسلامية في مقال الدرزي ما يأتي : « وفي رسائل الفروز السرية ما يشير بأنه قتل في سنة ٤١٠ هـ بتحريض حمزة ، وقتل معه عدة من العطاء الخوارج » . وجاء في النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٤ : دبر الحاكم للدرزي سبيل الفرار فسار إلى الشام وتزل ببعض قرى بانياس وأذاع في الناس دعوته فكانت أصل مذهب الفروز الصمير الذي سمي باسمه (وأساسه القول بالتناسخ وحلول الروح وأن الروح القدس انتقلت من آدم إلى علي بن أبي طالب ، ثم انتقلت روح علي إلى الحاكم بأمر الله) . (المغرب)

(٣) ذكر ابن الأثير ص ١٣١ ج ٩ أن اسمه أبو الحسن علي . (المغرب)

خلافته ست عشرة سنة . وولى بعده ابنه أبو « تميم معد » ولقب « بالمستنصر بالله » وعمره سبع سنين ف وقعت الحكومة في أيدي جماعة من المتآمرين ، فاضطرب حبل الأمن بسبب سوء الإدارة . وفي سنة ١٠٤٧ م انفصل الحجاز عن الخلافة الفاطمية ، كما أوقف صاحب أفريقية المسمى « بالمعز بن بادس » والملقب « بشرف الدولة » الدعاء للخليفة « المستنصر » ، وجعل الخطبة للخليفة العباسي ، غير أن ثورة « البساسيري » وفرار « القائم » من بغداد أديا إلى الخطبة « للمستنصر » لمدة سنة في العراق وتوابعها حتى قام « طغرل بك » وأعاد السيادة الدينية للخلافة العباسية في آسيا الغربية ، واستطاع السلاجقة في عهد « ألب أرسلان » — خليفة طغرل بك — طرد الجيوش الفاطمية إلى ما وراء العريش ، كما عصف في ذلك الحين بمصر ريح قحط شديد استمر سبع سنين حتى زاد في نكبة الأهلين ، وتوقف بذلك دولاب الإدارة وهاجر معظم الناس وتحولت البلاد إلى خراب بلقع . ولما ضاق « المستنصر » ذرعا بالإدارة استقدم (بدرًا الجمالي) حاكم عكا وأطلق يده في جميع الأمور ، فبرهن « بدر » على أنه منقذ البلاد الحقيقي ، فأعاد النظام في البلاد واطمأن الناس تحت حكمه العادل ووطد سلطة الخليفة في أنحاء مصر ، ولكنه عجز عن استرداد دمشق وإن كان قد أخضع الموالي الفينيقية ، وتوفي سنة ١٠٩٤ م ومات المستنصر بعده بشهر واحد بعد أن لقي شدائد وأهوالا حتى أصبح لا يملك غير السجادة التي يجلس عليها . وكان المستنصر قد أوصى بولاية العهد لابنه الأكبر نزار<sup>(١)</sup> فخلعه « الأفضل بن بدر الجمالي » الذي خلف أباه في الحكم وبيع بعرش الخليفة « أخا نزار » الأصغر « أبا القاسم أحمد » الملقب « بالمستعلي بالله » ، فهرب نزار إلى حاكم الإسكندرية الذي بايعه بالخلافة

(١) يقول لنا ابن الأثير ص ٩٨ ج ١٠ : « إن الحسن بن الصباح رئيس الطائفة الإسماعيلية قصد المستنصر في زى تاجر وخطبه في إقامة الدعوة له ببلاد المعجم ، وقال للمستنصر : من إمامي بعدك ؟ فقال ابن نزار ؛ وهو أكبر أولاده ، والإسماعيلية إلى يومنا هذا يقولون بإمامته » .  
(المعرب)

فسار إليه الأفضل وحاصر المدينة وأسرها ، ثم أسر بقتل الحاكم ولم يعرف بعد ذلك ما حل بنزار<sup>(١)</sup> . وفي سنة ١٠٩٦ م استولى الأفضل على القدس التي كان يحكمها « بنو أرتق » التابعين لملك دمشق السلجوقي ، غير أنه لم يلبث إلا مدة قصيرة حتى عصفت الريح الصليبية ثانية بالشام وفلسطين وقوضت دعائم الحكم السلجوقي والفاطمي ، وتوفي المستعلي في صفر سنة ٤٩٥ هـ ، فبايع الأفضل - حاكم الدولة الفاطمية الفعلية - ابن الخليفة المتوفى أبا علي النصور ولقب « الأمر بأحكام الله » ، وقام الأفضل بتدبير الدولة وحكمها حكماً مطلقاً حتى بلغ الأمر بأحكام الله سن الرشد ، وكان عهده عهد أمن ورخاء ؛ وبالرغم من الانتصارات التي نالتها الجيوش الفاطمية على أيدي ابن الأفضل الملقب « بشرف المعالي » فقد انتزع الصليبيون من مصر الموالي الفينيقية التي كان الجمالي قد استولى عليها . وعند ما بلغ « الأمر » سن الرشد أساء السيرة وانتمس في الملاذ ، ويصفه المؤرخون بأنه كان محبا للهو والطرب يميل إلى الاستبداد بطموحا للفخار مهملًا مهام الدولة ، ولأجل أن يتخلص من وزيره أمر بقتله ، غير أنه بعد تسع سنوات لاقى حتفه هو الآخر على أيدي بعض الفدائيين ( الحشاشين<sup>(٢)</sup> ) الذين دبروا اغتياله .

أبو الميمون  
عبد الحميد  
الحافظ لدين الله

ولما كانت زوج « الأمر » على وشك الوضع فقد أسندت مقاليد الحكم مؤقتاً إلى أبي الميمون عبد الحميد ولقب « بالحافظ لدين الله » ، غير أنها وضعت ابنة فبويح الحافظ بالخلافة ، ولكنه لم يلبث أن حجب عليه وزيره أبو علي أحمد ابن الأفضل المعروف بطموح النفس والكفاية النادرة وقوة الشكيمة ، وكان من شيعة الأئمة الاثني عشرية ؛ فلأجل أن يصبح الحاكم المطلق في مصر من

(١) يقول البعض إنه قتل سرا غير أن الفئة الإسماعيلية العرقية تدعى أنه فر إلى آسيا وأصبح الجد الأصلي لأئمة الإسماعيلية في قلعة آلاموت .

(٢) بسميم ابن الأمير المولايين .

جهة ولأجل أن يشبع أغراضه الطائفية من الجهة الأخرى أمر بأن يستبدل اسم الخليفة الفاطمي على السكة باسم الإمام الطفل الذي كان قد اختفى في أحد سرايب سامراء وأقيمت الخطبة باسمه أيضاً؛ غير أن الحافظ وهو في سجنه أغرى بالوزير من قتله في ١٥ محرم سنة ٥٢٦ هـ في البستان الكبير خارج العاصمة . وعلى أثر اغتيال « أبي على أحمد » استقامت أمور « الحافظ » ، غير أن البلاد لم تجن ثمرة من استرداد سلطته ، إذ كان سيء الخلق خاضعاً لوزيره أمير الجيوش « يانس الحفيظي » الذي كان عظيم الهيبة بعيد الغور كثير الشر ؛ ويقال إن الحافظ احتال على قتله في ذى الحجة سنة ٥٢٦ هـ واستوزر مكانه أرمنيا اسمه « بهرام » . وأدى التنافس بين « بهرام » و « رضوان » أحد رؤساء الدولة إلى نشوب الفتن والمنازعات ، فأمر الحافظ بإلقاء القبض على بهرام وحبسه ثم استوزر رضوان الذي لم يلبث أن خرج عليه ، غير أنه قتل في المعركة التي دارت بينه وبين جنود الخليفة . وقد أدى سلوك هؤلاء القواد إلى أن يستولى الخليفة بنفسه على مقاليد الحكم ويصرف أمورها كيف شاء دون أن يستوزر أحداً حتى توفي سنة ١١٤٩ م ، وفي أواخر عهده لم يعد للخلافة حول ولا طول ، وطفق زعماء العاصمة يتنازعون على السلطة . ويقول ابن الأثير : « إنه كان ضعيفاً منقاداً لبطانته ووزرائه » . ولما توفي ولي مكانه أبو المنصور إسماعيل ولقب بالظافر بأمر الله ، وكان مستسلماً للهو ، منغمساً في اللذات يقضى أوقاته في مصاحبة الندماء ، تاركاً حبل الأمور على غاربها لوزيره أبي الحسن علي الملقب بالملك العادل ، ولكن ربيبه ( ابن زوجته ) قتله سنة ١١٥٣ م وولى الوزارة بعده . ويقول ابن الأثير في الخلافة المصرية : « كانت الوزارة في مصر لمن غلب ، والخلفاء وراء الحجاب ، والوزراء كالتملكين ، وقل أن وليها أحد بعد الأفضل إلا محرب وقتل وما شاكل ذلك » . ولم تعد سلطة الحكم تمتد خارج قصر الخليفة ، كما أدت كثرة المنافسات وشدة الخصام وانتشار الفوضى في القاهرة التي أصبحت ميداناً فسيحاً

لأروع السفك إلى انحلال الدولة وانقراضها . وكان المصريون إلى ذلك الحين يملكون « عسقلان » غير أن الصليبيين لما رأوا ضعف المصريين وانقسامهم على أثر قتل « الملك العادل » اغتتموا هذه الفرصة وفتحوها عنوة . وفي محرم سنة ٥٤٩ هـ اغتال نصر بن عباس « الخليفة الظافر » ؛ ولأجل أن يرفع الوزير الخائن الشبهة عن نفسه وعن ولده « نصر » قتل أخوى الظافر وهما « جبريل » و « يوسف » بتهمة اشتراكهما في اغتيال الخليفة ، ثم أجلس القاسم عيسى بن الظافر ولقب « بالفائز بنصر الله » محاولاً بذلك أن يحكم البلاد حكماً مطلقاً ، ولكن القدر لم يمهله طويلاً إذ علمت أخوات الظافر بنحجر الجريمة ، فأرسلن إلى « طلائع بن رزيك »<sup>(١)</sup> حاكم مصر العليا شعورهن طى كتاب يستغثن به ، فزحف طلائع على القاهرة في قوة كبيرة من الجند وعرب البادية بأعلام وثياب سود حزناً على الظافر ، ولما هجر الجيش الوزير العباس وابنه ناصر فر الاثنان بثروتهما إلى الشام وكان يصحبهما الأمير أسامة وعدد كبير من الحاشية ، وكانت أخوات الظافر في ذلك الحين قد أرسلن إلى الصليبيين في عسقلان يعرضن عليهم مالا كثيراً مقابل القبض على العباس وابنه ، فطمع الفرنج بالجائزة وخرجوا من القلعة للقبض عليهما ، فدارت معركة شديدة بين الطرفين قتل فيها العباس وكثير من أتباعه وأسر « الناصر » ، وعندئذ وضعوه في قفص من حديد وأرسلوه مخفوراً إلى القاهرة حيث عذب ثم قتل وصلب ، ولم يلبث أن استقر « طلائع » في دست الحكم وخلع عليه خلع الوزارة كما لقب « بالملك الصالح » وعين وصياً على الخليفة الطفل .

وقفة الفائز

توفي الفائز قبل بلوغه سن الرشد ، غير أن الوزير بدلا من أن يولى أحد أفراد الأسرة المالكة الكبرى السن — وهم كثيرون وقتئذ — اختار محمد عبد الله بن يوسف أخا الظافر وبايعه بالخلافة ولقب « بالعاقد لدين الله » ، وكان

(١) كان من أصل أرمني .

صغير السن فقبض الصالح على رمام الحكم بيد من حديد واستبد بالأمر والنهي ولكن لم يمض سوى قليل حتى قتل<sup>(١)</sup> بدسائس القصر حسب قول ابن خلدون ولكن في رواية المقرئ « أن أحد الباطنية اغتاله في سنة ١١٦١ م ». نخله ابنه « العادل رزيك » ، ولم يمض طويل وقت حتى تغلب عليه « شاور » وقتله ، إلا أن « شاور » لم يمكث طويلاً في الوزارة حتى نازعه فيها « ضرغام » من بني سعد « صاحب الباب » ، وهي وظيفة تشبه وظيفة « الحاجب » في البلاط العباسي ؛ ففر شاور إلى نور الدين محمود سلطان دمشق واستنجد به ، فعاد على رأس جيش بمش به « ابن الزنكي » فقتل ضرغام في الموقعة التي دارت بينه وبين جنود الشام وبمدنند نصب شاور وزيراً . وتوفي العاضد سنة ١١٧١ م وانقرضت بوفاته الدولة التي أسسها عبيد الله المهدي .

تأسيس القاهرة

وضع جوهر أساس القاهرة في ٢٤ جمادى الثانية سنة ٣٥٩ هـ (١٤ آيار سنة ٩٦٩ م) ، وقد تم بناء السور المحيط بها قبل وصول الخليفة المعز ، وشيدت العائز الفخمة على كلا الجانبين فأكسبت مدينة القاهرة رونقا وغمامة وأنشئت فيها الطرق والشوارع التي كانت تسمى قبلاً بالحرارات ، وهي تؤدي إلى الضواحي والأخطاط . أما قصر الخليفة ويقع في الجانب الشرقي من القاهرة فكان يتألف من اثني عشر بهوا ، وسمى بالقصر الكبير الشرقي أو القصر المعزى ، وكان له عشرة أبواب يحرسه ١٥٠٠ جندي رجاله ومثلهم من الفرسان ، وكان يبلغ عدد الخدم والحشم اثني عشر ألفاً ، وكان ثمة نفق تحت سطح الأرض يؤدي إلى قصر فخم على الضفة الأخرى من النهر ويسمى بالقصر الغربي أو قصر البحر ، كما كان للخليفة عدة قصور نفخة ودور في المدينة وضواحيها مزينة بأحسن زينة . وكانت قصور الأمراء لا تقل عنها فخامة وبهاء ، وكانت الحدائق الغناء تحيط بمنازل الأغنياء

(١) ثم إن الصالح روج ابنته من العاضد فعاداه أيضاً الحرم فأرسات عمه العاضد الأموال إلى أمراء المصريين ودعهم إلى قتله . (المغرب)

والأثرياء ، ويلوح أن جمال هذه الحدائق وكثرتها ونخامة المنازل أثارَت إعجاب السياح العربيين الذين كانوا يؤمّون القاهرة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر<sup>(١)</sup> ، إذ كانت الجوامع والكليات والمستشفيات والعمارات الهائلة تزيد في جمال المدينة ونخامتها ؛ كذلك كانت الجوامع الأربع الكبرى بألغة حد العظمة والجمال ؛ وكان من أهم عمائر القاهرة في عهد الفاطميين « الحسينية » وهو بناء فسيح الأرجاء تقام فيه ذكرى مقتل « الحسين » في موقعة كربلاء : كما شيدت الحمامات العامة الجميلة في كافة أنحاء المدينة ، وخصص بعضها للنساء والبعض الآخر للرجال ؛ وكانت أسواقها تشتمل على عشرين ألف حانوت ملآنة كلها بشتى المنتوجات . كذلك كان يحيط بالمدينة سور متين عليه عدة أبواب<sup>(٢)</sup> . ومن أهم الألعاب التي كان الأشراف والأعيان يتلهون بها صيد الغزال على أنواعه كما كان الفلاحون يتلهون بصيد الأسماك . وكانت الإدارة تسير على نمط الإدارة العباسية<sup>(٣)</sup> ، ولم يكن ثمة فرق بين النظامين غير منصب قائد الجيوش العام الذي كان يجمع إلى قيادة الجيش منصب الوزارة . ويقال إن اضمحلال الدولة الفاطمية بدأ منذ عصر المستنصر ، إذ حلت المؤامرات محل السياسة ، وانحطت الأخلاق انحطاطاً عظيماً حتى أصبحت المؤامرات كافية لرفع المرء إلى أعلى مناصب الدولة ، كما استبدل طلاب العلم والعلماء بالخبرين والجواسيس ، وحل التملق

---

(١) كتب جهات تينود الدكتور في اللاهوت وأستاذ في الفنون الذي صحب أندري لروا رسول الملك لويس الثاني عشر إلى السلطان الغوري ، وصفاً شيقاً عن القاهرة وحدائقها وقصورها .

(٢) ومن أهمها باب النصر وباب الفتوح وباب القنطرة وباب زويلة وباب الخليج .

(٣) كان الموظفون قسمين : رجال السيف ورجال القلم ، أما رجال السيف فن جلتهم الوزير عادة ، والحاجب وهو يلي الوزير في المرتبة وقائد الجيوش العام ، وحامل مظلة الخليفة ، وحامل سيفه ، وحامل رحله ، وصاحباً شرطة القاهرة والفسطاط .

أما رجال القلم فن جلتهم الوزير أحياناً وقاضى القضاة ، وكان يصرف على ضرب النقود ويجلس للقضاء في جامع عمرو يوم السبت والثلاثاء ، وداعى الدعاء ، والمحنتب وخازن بيت المال ، ويتبع هؤلاء صفار الموظفين في مصالح الحكومة غير العسكرية . (المغرب)

والرياء محل الولاء واستقلال الشخصية ، وتذرع الحكام للبقاء في كراسي الحكم  
بيث بذور الشقاق والخلاف بين أبناء الشعب .

دار الحكمة

كان الفاطميون في أول عهدهم كالبطالسة الأولين يشجعون العلم ويكرمون  
العلماء ؛ فشيّدوا الكليات والمكاتب العامة ودار الحكمة ، وحملوا إليها مجموعات  
عظيمة من الكتب في سائر العلوم والفنون والآلات الرياضية لتكوف رهن  
البحث والمراجعة ، وعينوا لها أشهر الأساتذة ، وكان التعليم فيها حراً على نفقة  
الدولة ، كما كان الطلاب يمنحون جميع الأدوات الكتابية مجاناً . وكان الخلفاء  
يعقدون المناظرات في شتى فروع العلم كالمنطق والرياضة والفقه والطب ، وكان  
الأساتذة يتشحون بلباس خاص عرف بالخلمة<sup>(١)</sup> أو العباءة الجامعية ، وأرصدت  
للإتفاق على تلك المؤسسات وعلى أساتذتها وطلابها وموظفيها أملاك تبلغ إيرادها  
السنى ٢٥٧ ألف دوكان (٤٣ مليون درهم) ، ودعى الأساتذة من آسيا والأندلس  
لإلقاء المحاضرات في دار الحكمة فازدادت بهم روعة وبهاء .

لا يمكن أن نوفي تاريخ الفاطميين حقه من البحث دون أن نتحدث قليلاً  
عن الدعاية المذهبية التي وضعوا خططها واتخذوا نشر العلم بين الكافة سبيلاً لنزول  
الأذهان تحقيقاً لغايتهم السياسية ، فألحقوا بدار الحكمة « المحفل الأكبر » الذي  
كان يتلقى فيه المدعون سر المذهب الإسماعيلي ؛ وكان المحفل يعقد اجتماعاته يومى  
الاثنين والأربعاء من كل أسبوع برئاسة « داعى الدعاة » ، ويحضره النساء<sup>(٢)</sup>  
والرجال على السواء مرتدين الملابس البيضاء ، وكانت تسمى هذه الجماع بمجالس  
الحكمة ، وكان داعى الدعاة<sup>(٣)</sup> يلقى هذه الدروس الخاصة على الراغبين بعد

(١) لاتزال الجماعات الإنكليزية تستعمله كلباس الجامعة الرسمى .

(٢) يقول المقرئى ج ٢ وصبح الأعشى ج ٣ : « إنه كانت تقعد للنساء مجالس خاصة  
بمركز الداعى بالقصر وهو المسمى « بالمحول » وكان من أعظم الأبنية وأرحبها » .  
(المغرب)

(٣) جاء في صبح الأعشى ج ١٠ ص ٤٣٤ واجبات الداعى وطرق تلقين الدعوة

نوردها فيما يلى :

سراجة الخليفة وموافقته ؛ فإذا ما انتهت القراءة أقبل المؤمنون والمؤمنات على الداعي فيمسح على رؤوسهم بعلامة الخليفة . وقد انتهت إلينا بعض تفاصيل هذا المحفل على يد المقرئى فتراها تجرى على نسق الجمعيات السرية فى مراتب متدرجة ، ولقد أسست المحافل فى العالم المسيحى على نمطه .

أما دار الحكمة الفاطمية كأداة سياسية فقد فقدت نفوذها بانقراض الأسرة الفاطمية التى كانت تدين لها بالوجود ، ولكنها طفت مع ذلك تسطم بنورها على المدن المصرية حتى أصبحت أترأ بعد عين فى عصر المماليك الاستبدادى ؛ أما روحها السرية فقد قاومت صروف الدهر ، وأخذ تأثيرها يظهر فى ممالك وطوائف تختلف بمضها عن البعض الآخر من حيث المواهب والاستعداد .

انتهى

---

== وخذ العهد على كل مستجيب راغب ، وشد العقد على كل منقاد ظاهر ، ممن يظهر لك إخلاصه ويقينه ، ويصح عندك عناقته ودينه ، وحضهم على الوفاء بما تعاهدتم عليه . . . ، ولا تنكره أحداً على متابعتك والدخول فى بيعتك . . . ولا تلق الودعة إلا لحفاظ الودائع ، ولا تلق الحب إلا فى مزرعة لا تكدى على الزارع ، وتوخ لفرسك أجل الفارس ، وتوردهم مفارح ماء الحياة المعين ، وتقربهم بقربان المخلصين ، وتخرجهم من ظلم الشكوك والشبهات ، إلى نور البراهين والآيات ، واتل مجالس الحكم التى تخرج إليك فى الحضرة على المؤمنين والمؤمنات ، والمستجيبين والمستجيبات ، فى قصور الخلافة الزاهرة والمسجد الجامع بالمعزة القاهرة ؛ وكن أسرار الحكم إلا عن أهلها ، ولا تبذلها إلا لمستحقها ، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله ، ولا تستقل أفهامهم بنقله ؛ واجمع من التبصر بين أدلة المراتع والمقول ، ودل على اتصال المحتل بالمنون ، فإن الظواهر أجسام والبواطن أشباحها والبواطن أنفس والظواهر أرواحها . . . . (الغرب)